الصوت والشخصية[1]

بحث أصحاب الموسيقى فى الصوت الإنسانى من نواحيه الفنية،فقالوا فيه كل ما يعنيهم أن يقولوه ، ولكنى لا أظنهم وفوه بحثًا من ناحية فيه جديرة بالدراسة الطويلة ، لأنها تفضى بنا إلى استطلاع أسرار النفس وتركيب الشخصية الإنسانية ، ونعنى بها ناحية العلاقة بين الأصوات والشخصيات .

تلقى إنسانًا فى الطريق فتتوقع أن تسمع له صوتًا معينا يناسب ما رأيته من ملامحه الشخصية ، ثم يتكلم فتسمع منه ذلك الصوت الذى توقعته ، أو تسمع صوتًا لا يلفتك إلى غرابة فى التوفيق بين ما رأيت وما سمعت .

وتلقى إنسانًا آخر فيتكلم ، فإذا أنت قد فوجئت بصوت لا تنتظره ، ولا يبدو لك أنه يناسب تلك الشخصية فى جملة مظاهرها . ولا يرجع الأمر إلى القوة والضعف أو الارتفاع والهبوط ، فقد يكون الصوت قويًا كما توقعته ، ولكنه من معدن غير معدن الشخصية التى وزنتها بالعين والبديهة والخيال .

برزت هذه المسألة عندى بروزًا واضحًا بعد انتشار الصور

---

(١) يناسب هذا البحث موضوع الكتاب ولهذا نشرناه فيه .

المتحركة الناطقة وظهور الساسة والعظماء فيها متحدثين أو خطباء أو منشدين ، ولم يلفتنى الأمر من جانب الممثلين والممثلات ، لأن الذين يختارونهم يتعمدون اختيارهم وفاقًا لوقع الصوت والمنظر فى نفوس المشاهدين ، وإنما لفتنى من جانب الوزراء والقواد والرؤساء ، لأن أصواتهم بعيدة من توفيقات ذلك الاختيار المقصود .

فمن الأصوات التى قرأت عن أصحابها ورأيت صورًا لهم ، وعرفت أخبارًا عنهم ، ثم سمعتهم فلم أشعر بالغرابة فيها ، صوت فرنكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق وهو يخطب فى البرلمان ويتحدث إلى الصحفيين ، فلم يكن فى حديثه ولا فى خطابته يخالف ما توقعت من صفة الصوت ولا من نبرته وإيقاعه ، بل خيل إلى أن صوت روزفلت لا يمكن أن يكون إلا على هذه الصفة وهذا الإيقاع .

أما الأصوات التى استغربت أن تكون لأصحابها ، فمنها صوت شرشل وصوت مصطفى كمال ، وليس ذلك لضعف فيهما أو مناقضة لصفات الرجلين الرفيعة ، ولكن لأنها من معدن لا يطابق ما يرتسم فى نفسك من صورة الشخصية كما تتخيلها وأنت تسمعها . ويزيد دلالة هذه الملاحظة أن الصوت ليس هو الشىء الوحيد الذى تستغربه من شخصية بطل الترك أو بطل الإنجليز ، فإن عزيمة شرشل الحديدية تتراءى لك كأنها فى قناع

وراء ملامحه الممزوجة بملامح الطفولة والوداعة ، وتتراءى لك طبائع مصطفى كمال الغلابة وكأنها تتردد فى اتخاذ تلك المعارف الوجيهة التى تطل منها فى بعض حالاته . فإذا أردنا أن نقول إن العلاقة بين الصوت والشخصية لا تختلف عرضًا واتفاقًا وجدنا الشواهد فى ذلك ماثلة فى أحوال الاتفاق وأحوال الاختلاف ، بين الأصوات والشخصيات .

ومن المحقق أن قوة الصوت أو ضعفه لا ترتبطان بالحنجرة وحدها ، أو بأجهزة الصوت المحلية فى مجارى التنفس بين الحلق والرئتين . فإن هذه الأجهزة المحلية قد تكون على ضعف ظاهر من الوجهة الصحية ، ولكنها تعطيك صوتًا قويًّا يروع السامع وينقل عن « شخصيته » صورة تنم على القوة والتأثير . ولا شك أن مئات بين النساء أصح حنجرة وصدرًا من مئات بين الرجال ، ولكنك تسمع هؤلاء الرجال وأولئك النساء ، فلا تخطئ الفارق بين قوة الأصوات هنا وقوة الأصوات هناك . ولعلك لا تخطئ الاستدلال على القوة من صوت المرأة نفسه إذا كانت على نصيب من قوة الشخصية وصدق العزيمة ، مما يوحى إلينا أن الرخامة لا تحرم الصوت مزية التعبير عن الصفات الشخصية ، حيث تغلب الرخامة على أصوات النساء .

وعندك أناس تتطمس فيهم معالم الشخصية ، فلا تستغرب لهم صوتًا من الأصوات كائنًا ما كان ، ولكنك لا تحس أمامك

شخصية واضحة المعالم إلا قرنتها بصوت تتوقعه واستغربت أن تسمع لها صوتًا آخر غير الصوت الذى يناسبها فيما بدر إليك . ودع عنك دلالة الصوت على التهذيب والتربية ، فإن هذا قد يرتبط بأداء المعانى وانتقاء الكلمات وصقل المخارج والعبارات ، ولكنك إذا أغضيت النظر عن هذه العوارض التى تكسب بالتعليم بقيت للصوت صفة أصيلة تنم على العقل ولا يسهل أن تختلط فيها أصوات العارفين وأصوات الجلاء ، أو أصوات العقلاء وأصوات المجانين .

والمسألة فيما أراه قابلة للتعميم فى أوسع نطاق ، فإن ارتباط الصوت بالخصائص البدنية والخلقية يعم سائر الأحياء ولا ينحصر فى الإنسان وحده ، بل ربما تجاوزنا الأحياء إلى كل كائن من الكائنات له صوت معروف ومعهود .

ما قولك مثلًا إذا سمعت زئير الأسد من الحصان ؟ أو سمعت مواء الهرة من الخروف ؟ أو سمعت عواء الذئب من الثعبان ؟

ليس من اللازم أن يكون صوت الأسد مطابقًا للزئير الذى عرفناه وعهدناه ، غير أننا إذا سمعنا الزئير من الحصان وسمعنا الصهيل من الأسد شعرنا بالغرابة ولا مراء ، وشعرنا بين الصوتين والحيوانين باختلاف يحتاج إلى تصحيح ، ويبدو لنا أننا نشعر بهذا الاستغراب وإن سمعنا الصوتين لأول مرة بمعزل عن

أثر العادة وطول التمييز بين مصدر الزئير ومصدر الصهيل .

ولماذا مثلاً لم توهب ملكة التغريد إلا للمخلوقات التى تطير فى الهواء ؟ ولماذا كانت هذه الملكة فى تلك المخلوقات وقفًا على الطيور الصغيرة الوديعة دون الطيور الكبيرة الكاسرة ؟ ولماذا هذا الاختلاف بين النسور والبلابل ، أو بين الصقور والقمارى ، أو بين العقبان والعصافير ؟

إن الخلائق التى تمشى على الأرض تعبر عن خوالجها ببعض الأصوات المعهودة ، ولكنها لا تحسب من قبيل التغريد والغناء ، وكذلك النسور والصقور والعقبان تدلك بأصواتها على رضاها وغضبها وعلى مناجاتها وندائها . وتقصر عن تمثيل تلك الأصوات فى أنغام كأنغام الطيور التى تحسن الصفير والهديل . فهناك ارتباط وثيق إذن بين تكوين الجسم كله أو تكوين الخلق فى صميمه ، وبين طبيعة الصوت وقدرته على ترجمة « الشخصية » لمن يصغى إليه . وليس اتفاقا ولا خلوًا من المعنى أن يغنى البلبل والعصفور ، ولا يغنى الأسد والثعلب ، وأن يكون التغريد على العموم مرتبطًا بالقدرة على الطيران ، فإن الصوت هنا ترجمان صادق ويلخص لنا كثيرًا من الخصائص المتفرقة التى تتغلغل فى طبيعة البيئة وطبيعة البنية وطبيعة الشخصية فى أوسع حدودها ، وتلهمنا المعانى التى يمكن أن نستخرجها من تحقيق العلاقة بين أصوات الناس ومعالم الشخصيات فتفتح لنا فتحًا موفقًا فى عالم

النفس وأسرار الأخلاق ، وتنشئ لنا فراسة جديدة تنم على السريرة بالسماع .

ومن الأصول التى يعتمد عليها البحث فى هذا الموضوع أننا كما قدمنا نربط بين الصوت والشخصية ونتوقع من كل شخصية معروفة صوتًا يناسبها ويعبر عنها ، وإن اتفاق الصوتين بين الآدميين أندر من اتفاق الوجهين ، وهو خلاف المشاهد بين الأحياء الدنيا التى تكاد تتشابه فى أصواتها ولا يشذ منها واحد فى العشرات أو المئات ، ومعنى ذلك أن المسألة أقرب إلى العلاقة النفسية أو العلاقة المعنوية منها إلى العلاقة الجسدية ، لأن الاختلاف الجسدى قوة وضعفا وصحة ومرضا ، موجود بين الأحياء الأخرى ، فلو كان هو المرجع فى اختلاف الصوت لكان التفاوت فى الصهيل بين مئات الخيل كالتفاوت فى نغمة الصوت وإيقاعه بين مئات الآدميين ، وإنما يقع هذا التفاوت البعيد بين الشخصيات الآدمية من جانب الفوارق العقلية والنفسية وفوارق الملكات والأخلاق ، فإذا استطاع باحث من علماء الصوت وعلماء النفس معًا أن يعقد الصلة بين مقومات الشخصية ومقومات الصوت الإنسانى ، فقد ترجم الإنسان للآذان ، فضلاً عن ترجمته أو تفسيره للبدائة والأذهان .

وهذه دائرة من دوائر البحث الفنى أو العلمى تتسع لمن يشاء من المعنيين بالأصوات أو بالحقائق النفسية ، فليس منا إلا من

يقابل أناسًا يسمع أصواتهم ويستغرب بعضها أو يمر به بعضها الآخر مرور المألوفات التى لا غرابة فيها ، فإذا شغل نفسه قليلاً بتفسير أسباب الموافقة والمخالفة بين الشخصيات وأصواتها ، فلا شك أنه مهتد إلى شىء يفيده فى هذا الباب ، وإذا تجمعت هذه الملاحظات وحسن التعقيب عليها والاستخلاص منها ، فقد نقرر بها بعض القواعد التى تقيم لنا علمًا صحيحًا عن العلاقة بين الصوت الإنسانى والشخصية الإنسانية ، وييسر لنا البحث فى هذا الصدد أننا نعيش فى عصر المذياع والصور المتحركة ، ونستطيع أن نمتحن الفراسة بسماع الصوت دون رؤية الشخصية أو بتغيير الأصوات والشخصيات بالحيل الفنية المعروفة ، وليس فى المباحث النفسية أو الموسيقية ما هو أحق بالعناية من هذا المبحث الطريف .